بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ آل عمران الآية ١٠٢

﴿**ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسآءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾ النساء.الآية ١ ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ (الأحزاب ٧١)

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[١].

وبعد: فهذا درس حول (**السنن الإلهية ... دروس وعبر**) أتقدم به للمشاركة في أنشطة دار الاستقامة للتربية الإسلامية في طوبا، نسأل الله أن يوفقنا وإخواننا القائمين على هذا التنظيم للعمل الصالح المقبول، مصنفا نصوصه تحت أبواب علمية وعناوين فرعية تسهيلا لاستيعابها، وتيسيرا للتفقه فيها، ثم ذيلت ذلك كله بذكر الدروس المستقاة، والعبر المستفادة من تلكم السنن والله تعالى الموفق لما فيه الخير والصلاح.

---

(١) خطبة الحاجة التي كان يفتتح بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خطبه وكتبه، وقد رواهاأصحاب السنن، وأصلها في الصحيحين

بين يدي الموضوع:

أولا: المراد بالسنن الإلهية هنا: السنن الدينية لا الكونية:

قد ذكر الله تعالى لفظ سننه في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الاسراء:٧٧)

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ (الأحزاب:٣٨) وقال تعالى في آخر السورة : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦١-٦٢)

وقال :﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: من الآية٤٣) وقال:﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: من الآية٨٥) وقال:﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً* سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح:٢٢-٢٣)

فهذه كلها تتعلق بمطيعيه وعصاته كالمؤمنين والكافرين فسنته في هؤلاء إكرامهم وسنته في هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم.

قال ابن تيمية -بعد أن ساق هذه الآيات-:"وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم كما حبس الشمس على يوشع وكما شق القمر لمحمد صلى الله عليه وسلم وكما ملأ السماء بالشهب وكما أحيا الموتى غير مرة وكما جعل

العصا حية وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم ." رسالة في لفظ السنة في القرآن. ج: ١ ص: ٤٩-٥٢

ثانيا: أدلة وجوب الاعتبار وأخذ الدروس من السنن الإلهية:

قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) ﴾ (الحشر:٢)

وقال تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: من الآية١١١) قال ابن تيمية رحمه الله "وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع هن سواء واعتبروها بدية الأسنان فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي فعلم أن من صدقهم كان سعيدا ومن كذبهم كان شقيا وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر:٤٣)

يقول فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال :﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم فنفي الدليلين العقلي والسمعي. " (النبوات ج:١ ص: ٢٦٥)

ثالثا: أهمية التفقه في هذا الباب:

إن دراسة السنن الإلهية وفهمها والاعتبار بها تعد من أهم الوسائل لفهم الدين ، والثبات عليه حتى الممات، فمثلا إذا علم المؤمن أن الابتلاء سنة إلهية يجريها المولى عز وجل على المؤمن بقدر دينه لحكمة عظيمة وهي تمحيصه وإظهار أمره ثم إثابته على صبره -إذا علم ذلك- فلن يكون الابتلاء سببا لنكوسه وتبديله، بل يثبت ويصبر لعلمه بأن الله سينصره وأن العاقبة للمتقين،وحان الأوان للشروع في بسط ما أمكن من هذه السنن، وما تيسر من الدروس والعبر.

١-سنة الانتقام

قال ابن القيم رحمه الله:"الثالث الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه ولو رأي المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله وقد قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج:٦٠)

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا فكيف بمن لم يستوف شيئا من حقه بل بغي عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكا" بدائع الفوائد ج: ٢ ص: ٤٦٤

٢ - سنة التدافع

قال تعالى:﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥١)

قال شيخ الإسلام رحمه الله:" فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم النصارى ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد." (الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢١٦)

قال الحافظ ابن كثير رحه الله في تفسير هذه الآية:" أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض وأهلك القوي الضعيف" تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٢٢٧

٣- سنة التغيير

قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: من الآية١١)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (لأنفال:٥٣)

قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم يقول تعالى ذكره، إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره"

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:١٦٥)

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ٢/ ٤٦٧ :"فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره ...فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي ...وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد."

٤- سنة الافتقار

من سنن الله التي لا تبديل لها افتقار المخلوق إلى خالقه ، بل وحاجته إلى بعض المخلوقين في الأمور التي تكون من اختصاصهم، فكل ذي حرفة -مهما رقت به حرفته- محتاج إلى غيره ولا بد، فالصانع والزارع يحتاج كل منهما إلى الآخر، والموظف -كبر أم صغر- لا غنى له عنهما، والبناء في حاجة إلى ما يلبس، والخياط في حاجة إلى مسكن والمدرس يحتاج إليه طلابه، ولولا طلابه لم يكن مدرسا..وهكذا..

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥)

قال ابن كثير: "يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه فقال تعالى يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات وهو تعالى الغني عنهم بالذات ولهذا قال عز وجل: {والله هو الغني الحميد} أي هو المنفرد بالغنى وحده لاشريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه ."

٥- سنة خذلان من يعلق قلبه بغير الله

من سنن الله التي لا تبديل لها أن من خاف شيئا غير الله وكل إليه.

قال الحافظ ابن القيم : "فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين قال بعض السلف من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره بل يكون خوفه منه وحده ولا يرجو سواه بل يرجوه وحده ،فلا يعلق قلبه بغيره ولا يستغيث بسواه ولا يرجو إلا إياه ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه وخذل من جهته فمن خاف شيئا غير الله سلط عليه، ومن رجا شيئا سوى الله خذل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا." بدائع الفوائد ج: ٢ ص: ٤٧٠

وقال أيضا:" فهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل وعادته التي لا تحول أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق أجرى الله له بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله." مفتاح دار السعادة ج: ٢ ص: ١٤٣

٦ -أن التوحيد هو المفزع و لا يقبل عند المعاينة

قال ابن القيم:" التوحيد مفزع اعدائه واوليائه فاما اعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ }العنكبوت٦٥ وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع اليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون فى الدنيا، وما أعد لهم فى الآخرة، ولما فزع اليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه لأن الايمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله فى عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التى ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى فى الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجى منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها " الفوائد ج: ١ ص: ٥٣

قال شيخ الإسلام: ((قال الله تعالى : { فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُون} (غافر:٨٢-٨٥)

فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لم يك ينفعهم إيمانهم حين رأوا البأس وأخبر أن هذه سنته التي قد خلت في عباده ليبين أن هذه عادته سبحانه في المستقدمين والمستأخرين.

٦ -رمي المبتدعة أهل السنة بالألقاب ونقصان العقل

إن رمي أهل السنة بالألقاب كاتهامهم بالانحراف عن الحق، أو بالجنون من أبرز علامات المبتدعة، وهو من سنن الله التي لن تجد لها تحويلا. قال ابن القيم

:"...وهذه سنة الله في خلقه أن أنقص الناس عقولا وأعظمهم سفها يرمون أعقل الخلق وأفضلهم بنقصان العقول ولا تنسى قول أعداء الرسل في الرسل أنهم مجانين لا عقول لهم فهكذا ورثتهم يرمون ورثة الرسل بدائهم إلى يوم القيامة.

الصواعق المرسلة ج: ٤ ص: ١٥١٨

٧- سنة تأييد الأولياء وأن العاقبة للمتقين

إن من السنن الإلهية المستقرة الثابتة نصره لأوليائه على أعدائه، وأن العاقبة -مهما طال الزمن- للمتقين. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ۞ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح:٢٢-٢٣)

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: من الآية٤٩) وقال تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه: من الآية١٣٢) والمراد العاقبة في الدنيا قبل الآخرة لأنه ذكر عقيب قصة نوح ونصره وصبره على قومه فقال تعالى :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

قال ابن تيمية: "وقد علم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه." العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٢٥

قال ابن كثير: "فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله إنا لننصر رسلنا الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين." تفسير ابن كثير ج: ٢ ص: ٢٢٤

٨- عدم التسوية بين المتفرقات وعدم التفريق بين المتماثلات.

قال تعالى:﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* (القلم: ٣٥-٣٦)

وقال تعالى :﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص:٢٨)

وقال :﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية:٢١)

فجعل سبحانه ذلك حكما سيئا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلا عن أن ينسب إليه ... وأما الثاني وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فكقوله:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩)

وقوله :﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: من الآية٧١) وقوله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: من الآية٦٧) " والقرآن مملوء من هذا يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله."

شفاء العليل ج: ١ ص: ١٩٩

٩ - سنة الابتلاء

قال تعالى :﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢-٣)

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: من الآية١٧٩)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: " يبتلى المرء على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء وإن كان في دينه رقة خفف عنه البلاء.[1]" والمراد بالدين هنا الإيمان الذي يثبت عند نوازل البلاء ،، "ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الجب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه وابتلائه بمراودة المرأة وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها وهي الداعية إلى ذلك فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء.

قال ابن القيم: "وهكذا الشدة مقدَّمةٌ بين يدي الفرج، والبلاء مقدم بين يدي العافية والخوف الشديد مقدم بين يدي الأمن، وقد جرت سنة الله سبحانه أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضداده ." مدارج السالكين ج: ٣ ص: ٢٩٥

١٠ -سنة التداول

من سنن الله الدينية أن من المحال دوام الحال، فلا الغنى يدوم ولا الفقر، ولا الصحة ولا الفراغ، ولا الشباب .

ولما سأل هرقل وفد قريش عن محاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعاهدته فأخبروه أنه في الحرب تارة يَغلب كما غلب يوم بدر ،وتارة يُغلب كما غلب يوم أحد وإنه إذا عاهد لا يغدر فقال لهم: وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه فقلتم إنها دوال يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها قال: وسألتكم هل يغدر فقلتم إنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر.

---

[1] رواه أحمد ١/ ١٧٢وغيره من حديث سعد بلفظ: أشد الناس بلاء الأنبياء فالصالحون ثم الأمثل فالأمثل، وإسناده حسن.

قال شيخ الإسلام:" فهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون علم أن هذا من علامات الرسل فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له [1]والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال :﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٣٩-١٤١)

فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره فإنهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذ الجميع يظهرون الموالاة فإذا غلبوا ظهر عدوهم قال تعالى :﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(آل عمران:١٦٦-١٦٨) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ١٢٨-١٢٩

[1] رواه مسلم برقم ٢٩٩٩ وابن حيان وغيرهما.

١١ -سنة إظهار المعارض لإحقاق الحق:

ومن السنن الإلهية أنه تبارك وتعالى يقيم في كل زمان ومكان من يحارب دينه، فيظهر دينه على أعدائه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:" ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق." مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٥٧ وإذا أراد الله نشر فضيلة ❋ طويت أتاح لها لسان حسـود

١٢ -من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه:

تحدث ابن القيم عن المهدي فقال: "القول الثالث أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من ولد الحسن بن علي يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا وأكثر الأحاديث على هذا تدل وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئا أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها." المنار المنيف ج: ١ ص: ١٥١

قال ابن المبارك رحمه الله: "باب من ترك شيئا لله ٣٦": أنا يزيد بن إبراهيم عن أبي هارون الغنوى عن مسلم بن شداد عن عبيد بن عمير عن أبي بن كعب قال ما ترك عبد شيئا لا يتركه إلا لله إلا أتاه الله بما هو خير منه من حيث لا يحتسب ولا تهاون عبد أو أخذه من حيث لا يصلح له إلا أتاه الله بما هو أشد منه من حيث لا يحتسب." الزهد لابن المبارك ج: ١ ص: ١٠

١٣ - كما تدين تدان والجزاء من جنس العمل

قال ابن القيم:((وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة ،،، وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين، وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا، فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته الى محق وقلة وحاجة وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر، والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شابت لهم الولاة فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز فضلا عن مثل أبي بكر وعمر

بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها." مفتاح دار السعادة ج: ١ ص: ٢٥٣-٢٥٤

١٤ - سنة الكيد

من السنن الإلهية أن الله يكيد لعباده الصالحين على من كادهم، كما قال عزوجل:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ (الطارق:١٥-١٦)

وقال تعالى:﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران:٥٤)

قال ابن تيمية: " بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيدا محرما فإن الله يكيده وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة فإنه لا يبارك له في هذه الحيل كما هو الواقع وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة وعلى هذا قوله بعد ذلك :﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء﴾ (الأنعام: من الآية٨٣) .)) الفتاوى الكبرى ج: ٣ ص: ٢١٦

يشير رحمه الله إلى قوله تعالى:{فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } يوسف٧٦

نكتفي بهذا لنخلص منها لذكر ما أمكن من الدروس والعبر.

الدروس والعبر المستفادة من السنن الإلهية:

١ – الصبر وعدم التسرع إلى الانتقام إذا علم المؤمن أن الله ينتقم له من عدوه.

٢ – أن البغي والاعتداء بالقول والعمل على الآخرين سلاح يقاتل به الباغي نفسه وهو لايدري لضعف بصيرته.

٣- إذا علم المؤمن أن الله يدفع الكفر بالإيمان، والبدعة بالسنة، والسيئة بالحسنة كان ذلك دافعا له على الحرص على تصحيح إيمانه، والاعتصام بالسنة، وملازمة العمل الصالح.

٤ – إذا علم العبد المؤمن أن الله لا يغير ما به من نعمة ما لم يغير حاله من طاعة ربه ثبت على التقوى وموجباتها، وحرص على تغيير ما بنفسه من رعونات واتباع للهوى . ولازم التوبة والأوبة إلى الله .

٥ – أن من السخف أن يتعب الإنسان المسلم نفسه في البحث عن التمكين في الأرض دون إصلاح نفسه أولا باعتبار صلاحها اعتقادا وسلوكا أهم شرط للتمكين.

٦ – من الدروس المهمة التي نستفيدها من معرفتنا بأننا مجبولون على الحاجة والافتقار، وأن الله وحده هو الغني أن نتوكل عليه سبحانه، وندعوه بإظهار الذل والحاجة والافتقار إليه، وألا نعتمد على مخلوق اعتماد التوكل والافتقار والذل، لأنه فقير هو الآخر، وأن نحمد الله على ما منحنا من النعم التي لاتحصر، لذلك قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(فاطر: من الآية١٥)

٧- من العبر أن العبد إذا عرف أن التوحيد الخالص هو المفزع والمنجي بادر إلى تحقيق التوحيد، ونزه قلبه عن شوائب الشرك بالله ومن ذرائعه المفضية إليه.

٨- وإذا علم أن التوبة لا تنفعه عند الموت بادر بالتوبة إلى الله في كل وقت وحين كما قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: من الآية٣١)

٩- إذا عرفت أيها المتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن من سنن الله في خلقه نبز أهل البدع أهل الحق بالألقاب واتهامهم بما يتبرؤون منه، وعلمت أن أنبياء الله لم يسلموا من ذلك اطمأن قلبك بتجريح المتدعة لك فإنها -في الحقيقة- تزكية .

١٠- وإذا عرفت أيضا أن وصف أهل السنة بالانحراف ونحوه دليل على الزيغ عن منهج السلف وبرهان على سلوك مسلك أهل البدع كان ذلك حافزا لك على التوقي وأخذ الحيطة والحذر في تقويم الرجال حتى لا تقع في البدعة وأنت تزعم الانتصار للسنة.

١١- إذا علم المؤمن الداعية إلى الله أن العاقبة للمتقين كان ذلك حاملا له على التمسك بموجبات التقوى، والبعد عن موجبات الخذلان.

١٢- وإذا أيقن أن العاقبة لأهل التقوى اطمأن قلبه، وهدأت نفسه وصبر على ما أصابه من المناوئين للدعوة، كما في الآية الكريمة: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

١٣- إذا علمنا أن مقتضى العدل يتنافى مع التفريق بين المتماثلات، أو التسوية بين المتفرقات حرصنا على تحقيق العدل في الحكم على الأشياء فلا نفرق بين الشيء ونظيره، ولا نسوي بين الشيء وضده، ومن ذلك ألا نحاكم الناس إلى غير أصولهم، فالمبتدع يفهم كلامه على ما تقتضيه أصوله،ويحكم عليه طبقا لذلك، ومن كان من أهل السنة وجب فهم كلامه على أصول السنة ،فإذا أخطأ وجب تنبيهه إلى مخالفته أصوله، وبهذا تحل كثير من الإشكالات،وفي ترجمة الذهبي لابن حبان بيان شاف.

١٤- إذا علم المؤمن أن من مقاصد الابتلاء تمييز الخبيث من الطيب وعرف أن مدة الابتلاء في هذه الدنيا قصيرة إذا ما قورنت بما وراء ذلك من نعم لا نهاية لها كان ذلك دافعا له على الاجتهاد في الصبر على البلاء، فيكون عنصرا صالحا طيبا مميزا.

١٥- وإذا علمنا ضرورة الصبر على البلاء انكشف لنا خطورة التسرع والعجلة التي يقع فيها بعض الناس لاسيما مما يؤدي بالأمة إلى فتن لايعلم مداها إلا الله.

١٦- إذا عرف المؤمن أن الأيام دول، وأن دوام الحال من المحال لم يحزن إذا ظهر عدوه عليه يوما من الأيام؛ فإن نصر الله آت لاريب فيه.

١٧- وبالمقابل إذا كان المؤمن في صحة وعافية ورغد من العيش فإنه يبقى متوازنا لا يظهر الفرح الزائد فضلا عن أن يصبح من أهل البغي والجحود، كما قال تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٣)

١٨- إذا علمنا أن الله لم يترك الخلق سدا وأنه بعث في كل أمة رسولا ليدعوهم إلى التوحيد الخالص ويحذروهم من الشرك كان ذلك حجة علينا على وجوب الدعوة إلى التوحيد والبدء به كما صنع أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

١٩- وبمعرفة أن الله لم يخل أمة بلا رسول نعرف أن إقامة الحجة على الخلق مقدمة على الحكم وعلى العذاب، فمن لم تقم عليه الحجة الرسالية ولم يسمع بدعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يعذب ،كما هو بين في قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء:١١٥) ومن لم تقم عليه حجة في مسألة لم يجب عليه العمل بها حتى تقوم عليه الحجة، وهناك تفاصيل لهذه القضية ليس هذا محلها.

٢٠- إذا رأينا من يحارب الدين ويسعى في القضاء عليه فلا نحزن ولنعلم أن هذا الدين ينتشر بالمحاربة، وهو نور الله الذي لا يطفأ كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:٨)

إذا علم العبد المؤمن أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه كان ذلك حافزا على الإقلاع عن طلب الحرام في الأرزاق والشهوات والحظوظ النفسانية.

٢١- إذا علمنا أن منع حق أوجبه الله- كمنع الزكاة وارتكاب المحرمات كالمراباة ونحوها-يؤدي إلى العقوبات العاجلة غير الآجلة كان ذلك صارفا لنا عن منع الحقوق واتكاب المحرمات.

٢٢- مادام الولاة من جنس الرعايا صلاحا وفسادا فإن الطريق الشرعي لإيجاد الوالي الصالح هو تربية المجتمع على دين الله وعلى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الكرام عقيدة وعبادة وسلوكا، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ (البقرة: من الآية١٣٧)

٢٣- إذا عرف العبد المؤمن أن من كاد خلق الله ومكر بهم ظلما وعدوانا كاده الله ولم يبارك له في سعيه وجب عليه الابتعاد عن الحيل المحرمة في المعاملات وغيرها.

٢٤- ومن علم أن الله يكيد للمظلوم الممكور به توكل على الله وفوض أمره إليه.

والله الموفق

وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

طوبى في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٩

مقر دار الاستقامة